إيبارشية المنيا وأبوقرقاص
للأقباط الأرثوذكس

أقع في يد الله

يا رب لا تبكتني بغضبك

إعداد:
مكاريوس
الأسقف العام

اسم الكتاب: **أقع في يد الله**

المؤلف: مكاريوس، الأسقف العام.

الناشر: إيبارشية المنيا وأبوقرقاص للأقباط الأرثوذكس.

الطبعة: الأولى - نوفمبر ٢٠١٦

المطبعة: مطابع النوبار - العبور.

الغلاف: القس بولا وليم

العناوين: مجدي لوندي

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر

نيافة الحبر الجليل الأنبا أرسانيوس

مطران المنيا وأبوقرقاص

أقع في يد الله

«قَدْ ضَاقَ بِيَ الأَمْرُ جِدًّا. فَلْنَسْقُطْ فِي يَدِ الرَّبِّ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ وَلاَ أَسْقُطْ فِي يَدِ إِنْسَانٍ».(٢صم٢٤: ١٠-١٧)

أوصى الرب داود النبي ألا يحصي الشعب حتى لا يفتخر وينسب الانتصارات للعدد والعدة، ولكن داود لم يستطع مقاومة الإغراء فأسلمه الله إلى شهوة قلبه فقام بإحصاء الشعب ليعرف عدد القادرين على حمل السلاح، حيث وصلوا عددهم إلى مليون وخمسمائة ألف مقاتل وهو عدد مرعب بلا شك.

ولكن داود البار الرقيق، انتبه وُنخس في قلبه، فاعتذر للرب وطلب المغفرة، ومن ثم عرض عليه جاد الرائي (الرائي أعظم رتبة ما بين: رجل الله، والنبي، والرائي والذي يمكن أن يكون مثل الثيئوريموس أي ناظر الإله) واحدةً من ثلاث عقوبات: الجوع لسبع سنين، أو المطاردة من الاعداء ثلاثة أشهر، أو الوبأ لثلاثة أيام.

ورغم أن العقوبات الثلاثة المقترحة جميعها تبدو كوارث، فإن الجوع لسبع سنين سيهلك الكثيرين من الجوع ومن ثَمّ من الوبأ بسبب موت الكثيرين، حيث كانت العادة أنه بعد الجفاف تأتي المجاعة وبعد

المجاعة الوبأ بسبب طرح جثث الكثيرين في الشوارع دون دفن، ومن ثَمّ ينتشر الوبأ ومن هنا ارتبطت الأوبئة بالمجاعات، وأمّا هروب داود أمام أعدائه فقد يتسبب في تدمير المملكة وربما استيلاء الأعداء عليها.

وراح داود يفكر كثيرًا ويتنقل بين الخيارات الثلاثة، فأحلاها مُر، تمامًا مثلما يخيّرون إحدى الأمهات بين أولادها الثلاثة لتقدمه ذبيحة! ولم يجد داود سوى أن يطرح نفسه عند قدمي الله وليقضِ له ما يراه، وهذه أفضل طريقة: أن تقول لله: "اختر لي فأنت تحبني وتعرف ما هو لخيري".. ذكّرني ذلك بما فعله "الوزير يوحنا الأبح" حين خيّره الوالي بين كنيستين بناهما بدلًا من واحدة سمح له بها (كنيسة القديسة بربارة، وكنيسة أباكير ويوحنا بمصر القديمة)، وراح الوزير يتنقل بين الاثنتين حتى وقع ميتًا!.. ومن ثَمّ أمر الوالي وكان نبيلًا بترك الكنيستين إكرامًا لأمانة ذلك الرجل.

وهكذا ما وصل إليه داود النبي، وما نطق به، قد صار شعارًا ومبدءًا لكل إنسان يثق في الله وحسن تدبيره، مثلما يخطئ أحد الأبناء ويطلب الأب منه أن يعاقب نفسه، وفي هذا حكمة كبيرة أن يتقدم الابن بالاعتذار وأن يترك كل منهما للآخر حرية الاختيار. وهذا ما قرره الله، الاختيار الأفضل، وبأ لمدة ثلاثة أيام. هكذا قال داود: «فَلْنَسْقُطْ فِي يَدِ الرَّبِّ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ وَلاَ أَسْقُطْ فِي يَدِ إِنْسَانٍ».

عندما أُمسِكت المرأة في ذات الفعل: ظهر الفرق بين طريقة تعامل الكتبة والفريسيين معها، وتعامل الرب معها: «وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِنًا. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسْطِ ٤قَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، هذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ، ٥وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟» (يو ٨: ٣-٥) والعجيب أنهم يأخذون مكان الله، يريدون أن يقتلوا باسم الله وعلى مذبح الله، وأمامهم واضع الشريعة، ولكن الرب يترفق بها وينقذها من أيديهم، ويبكتهم هم على خطاياهم، ولم يدنها بل غفر لها، وصرفها بسلام موصيًا إياها ألا تخطئ من جديد، وهذا هو الفرق. لقد غادرت المرأة المكان وهي تردّد فيما بينها وبين نفسها "أقع في يد الله ولا أقع في يد إنسان".

وذات مرة انتهر التلاميذ المرأة الكنعانية وطلبوا من الرب أن يصرفها، ولكنه في النهاية أعطاها سؤل قلبها بل منحها أعظم وسام يمكن أن يُمنَح لإنسان «يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ». كذلك ينتهر التلاميذ رجلًا أعمى كان يصرخ: «فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ، ابْتَدَأَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: "يَا يَسُوعُ ابْنَ دَاوُدَ، ارْحَمْنِي!" فَانْتَهَرَهُ كَثِيرُونَ لِيَسْكُتَ، فَصَرَخَ أَكْثَرَ كَثِيرًا: "يَا ابْنَ دَاوُدَ، ارْحَمْنِي!". فَوَقَفَ يَسُوعُ وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى. فَنَادَوُا الأَعْمَى قَائِلِينَ لَهُ"«ثِقْ! قُمْ! هُوَذَا يُنَادِيكَ". فَطَرَحَ رِدَاءَهُ وَقَامَ وَجَاءَ إِلَى يَسُوعَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: "مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟" فَقَالَ لَهُ الأَعْمَى:

"يا سَـيِّدِي، أَنْ أُبْصِـرَ!". فَقَالَ لَهُ يَسُـوعُ: "اذْهَبْ. إِيمَانُكَ قَدْ شَـفَاكَ". فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَ، وَتَبِعَ يَسُوعَ فِي الطَّرِيقِ» (مرقس١٠: ٤٧-٥٢).

كثيرين يسعون لمقابلة الكبير لعلمهم أنه أكثر شفقة ممن هم دونه..

وأصـــعب من ذلك مع المرأة "ســاكبة الطيب" والتي قدمت عمل محبة ولم تطلب شـيئًا ولكن التلاميذ أنفسـهم بكّتوها، ولكن الرب نهرهم «لِمَاذَا تُزْعِجُونَ الْمَرْأَةَ؟ فَإِنَّهَا قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلًا حَسَـــنًا! لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَأَمَّا أَنَا فَلَسْـتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ. فَإِنَّهَا إِذْ سَكَبَتْ هذَا الطِّيبَ عَلَى جَسَدِي إِنَّمَا فَعَلَتْ ذلِكَ لأَجْلِ تَكْفِينِي. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهذَا الإِنْجِيلِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ، يُخْبَرْ أَيْضًــــا بِمَا فَعَلَتْهُ هذِهِ تَذْكَارًا لَهَا». (متى٢٦: ١٠-١٣).

هذا وقد اتخذ الكثيرون من هذا الدفاع شعارًا للدفاع عن المرأة "لما تزعجون المرأة؟". ومما يلفت الانتباه أن امرأة واحدة لم تخن المسـيح أو تسئ له إبان حياته على الأرض، بل ظهرن جميعهن في شجاعة نادرة إبان فترات الاضـطهاد، كما يُلاحظ أنه في كل مكان وزمان أن نسـبة العابدين من السـيدات أكثر من الرجال، وذلك لعدة أسـباب، وأرى أن تعامل المسيح مع المرأة أحد أهم تلك الأسباب.

وفي الأسـرة يحدث أحيانًا أن يختار الأولاد أن يلجأوا للحديث مع طرف من الوالدين دون الآخر، وذلك بسـبب ترفقه، سـواء للاعتراف

بشــيء ما أو لطلب ما، فيقول الابن "أقع في يد بابا لأن مراحمه كثيرة، ولا أقع في يد ماما"، مع أن الأم غالبًا ما تكون أكثر حنوًا، فإذا حدث مرة أن روت الابنة للأم عن حماقة ارتكبتها، فأهانتها الأم أو فضــحتها بين إخوتها أو أقرانها، فإنها تميل بعد ذلك إلى تحاشـــي الكلام معها، وربما تقول "نار بابا ولا جنة ماما". ليتكم تكونون حضنًا دافئًا للآخرين. فـالنـاس على مختلف طباعهم وأعمـارهم، إنمـا يميلون إلى من يتمهل عليهم ويترفق بهم ويتفهمهم، ولدينا فيمن نحيا بينهم من الشــخصــيات من يُعد بحق مستودعًا لأسرار الكثيرين.

إن يد الله هي يد حانية وشـافية ومترفقة، وكثيرًا ما نقول أن يد الله ظهرت في الأمر، ووصــف خروج بني إســرائيل من مصــر «لأَنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ أَخْرَجَكَ الرَّبُّ مِنْ مِصْـرَ» (خر١٣: ٩) بل أن كل من يلقي بنفســه في يد الله ستتلقفه هذه اليد، بل وسيجد نفسه منقوشًا عليها. وأتذكر تلك القصــة الرائعة عندما سـألت فتاة أمها عن سر تشوه يديها رغم أن الأم جميلة كلها، وحينئذ أفضــت لها بالســر حيث كانت الطفلة قد أحاطت بها ألسنة اللهب، ومن ثم غطت وجهها بيديها لتحميها، فتشوهت يداها بفعل النار، وعند ذلك قامت الفتاة بتقبيل يدي أمها قائلة: "إن أجمل ما فيك هو هاتين اليدين". هكذا ننظر إلى يدي المســيح الداميتين من أثر المســامير قائلين: "خلصــتنا هاتان اليدان المبســوطتان على الصــليب لتحتويا الكل" (بسطتَّ يديك... – لحن الجلجثة).

وأحيانًا يجد الناس في شرطي المرور أو الضابط صفة الترفق: فما أن يسمع السائق عن اسم ضابط المرور أو الشرطي حتى تنفرج أساريره، ويقول الوقوع في يده أرحم. تركت سيدة طفلتها في ولاية دالاس في السيارة ودخلت المول لتقضي بعض احتياجاتها ولفت ذلك بعض أفراد الشرطة، فلما عادت طلب أحدهم تسلم الطفلة واعتبار أن الأم غير أمينة على ابنتها، وانهارت السيدة في البكاء، ولكن شرطيًا آخر ترفق بها وقال لزملائه لها عذرها لأنها وافدة جديدة وسنكتفي بإنذارها هذه المرة، والتقطت الأم أنفاسها شاكرة ذلك الشرطي الذي وقعت في يده.

بينما يخاف البعض من الوقوع في يد شخص قاسٍ، فيدعو الله ألا يسمح له أن يقع في يد فلان، أو يتوعد شخص ما آخر قائلًا احذر لئلا تقع في يدي، ويجيب الشخص "أقع في يد الله ولا أقع في يدك"، لا سيما وأن الله حتى متى عاقب فهو يعاقب للإصلاح وليس للانتقام، أي أن العقاب يصب في صالح الإنسان، وهذا هو الفرق بين العدل الإلهي والعدل البشري، فالأخير مَعني بالقصاص فقط بينما العدل الإلهي يعيد الإنسان إلى رتبته الأولى. والأسوأ أنه وبينما يبدو شخص ما أنه حنون، فقد يحمل خنجرًا، والعكس صحيح فإن «أَمِينَةٌ هِيَ جُرُوحُ الْمُحِبِّ، وَغَاشَّةٌ هِيَ قُبْلاَتُ الْعَدُوِّ» (أمثال٢٧:٦)، وعن يهوذا قال الكتاب «كلامة أنعم من الزيت وهو نصال» (مزمور٥٥:٢١ – قبطي).

عندما قدّمت بعض الأمهات أطفالهن إلى المسيح ليباركهم، منعهم التلاميذ بحجة الزحام وعدم مضايقة المسيح، وهو أمر كثيرًا ما يتكرّر حين ترغب العديد من الأمهات في أن يبارك الأسقف أو الكاهن أولادهن أو يرغب الكثيرون في التقاط الصور، فينهرهم بعض من المسئولين بدون حكمة، فيتعثّرون، ويحدث كثيرًا أن يمنع الذين حولنا بعض الناس بحجة إراحتنا أو التخفيف عنا، بينما يرى الناس أن الأسقف أو البطريرك أكثر حنوًا منهم إلا متى كانت ظروف خاصة حين لا يحتمل الراعي بسبب تقدمه في السن أو حالته الصحية، وحينئذ يحتاج إلى من يوفر له السلامة. «حِينَئِذٍ قُدِّمَ إِلَيْهِ أَوْلاَدٌ لِكَيْ يَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَيُصَلِّيَ، فَانْتَهَرَهُمُ التَّلاَمِيذُ.أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ:"دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ". فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ» (متى١٩ :١٣-١٥).

ويخشى الناس من بعض القضاة وأحكامهم، فيسأل المحامون مبكرًا عن القاضي، ويطلبون التأجيل متى شعروا بأنه قاسٍ في أحكامه، أو يُعرف عنه أنه غير رحيم، يقول الرب: «فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أَيْضًا رَحِيمٌ» (لوقا٦ :٣٦)، ولذلك يسمح الله أحيانًا بتجربة قاسية للقاضي فيتعلم الرحمة والترأف. روى لي المستشار أنطون باسيلي والذي كان ينظر قضية السيدة التي قتلت زوجها بالسويس وقطعته ووضعته في أكياس، وقد قسى عليها الجميع الشرطة والنيابة والإعلام

والرأي العام والمحلِّلون النفسيين وغيرهم، حتى طلب القاضي أن يسمع منها شخصيًا فلما علم القصة الحقيقية فاجأها بقوله "امضي ربّ أطفالك".. يقول داود النبي «لأَنَّهُ يَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْمَسْكِينِ، لِيُخَلِّصَهُ مِنَ الْقَاضِينَ عَلَى نَفْسِهِ» (مزمور ١٠٩: ٣١).

كذلك فقد يسمح الله لكاهن ما بأن يعاني من ضعف ما أو يواجه مشكلة ما يعاني بسببها، ومن ثَمّ يبدأ بأن يترفق بالآخرين، قال المتنيح الأنبا بيمن أسقف ملوي السابق إنه كان قاسيًا لا يرحم، حتى أصبح كاهنًا وسمع العديد من معاناة الناس، ومن ثَمّ بدأ في الإشفاق على الآخرين.

ومن هنا، هناك فرق بين أب وآخر في الاعتراف والتدبير، ولا تعارُض بين الترفُّق والحزم في التدبير الروحي، مجرد أن يتكلم معه يشعر بالراحة، تكفيه نظرته الحانية وترحيبه به. ويُسمّى التدبير الكهنوتي تدبيرًا شفائيًا وليس تدبيرًا قضائيًا. ونتذكر هنا الأنبا إيسيذورس والذي كانوا يسلمون له أي شخص يتعب معه الآخرون فهو الطويل الأناة..

عندما رفضت السامرة قبول المسيح انفعل القديسان يعقوب ويوحنا قائلين: «يَا رَبُّ، أَتُرِيدُ أَنْ نَقُولَ أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُفْنِيَهُمْ، كَمَا فَعَلَ إِيلِيَّا أَيْضًا؟» (لوقا ٩: ٥٤)، ولكن الرب ردّ عليهم برفق قائلًا: «لستما تعلمان من أي روح أنتما»... أي ما هذه الروح التي تفكران وتتكلمان بها «لأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ

عَلَى خَائِفِيهِ» (مزمور١٠٣: ١١)، وتقابل الرب مع الســـامرية، وقدم السامريين لليهود أفضل تقديم من خلال مثل السامري الصالح، ولعله بســـبب طول أناة الله قبلت الســـامرة الإيمان وأرســـل لهم الرســـل من يتابعهم: «وَلَمَّا سَمِعَ الرُّسُلُ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ أَنَّ السَّامِرَةَ قَدْ قَبِلَتْ كَلِمَةَ اللهِ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا» (أعمال٨: ١٤).

إن من بين أســـباب لجوء داود إلى يد الله، هو أن عدل الله رحيم ورحمته عادلة، فرغم اختيار داود لله ليقع في يده، لم يعفه الله من العقاب، فهو مؤدِّب بالرحمة، ومن هنا فإن الإنســـان مســـتعد لقبول التأديب إذا جاء ممن يحبه. ونقول في صـــلاة نصـــف الليل: "تأخذني رعدة فأهرب إليك يا الله"، مثل الطفل الذي يضـــربه والده فيمســـك به الطفل بالأكثر، وكثير منا لا يرغب ســـوى في حكم عادل وليس بالضـــرورة في العفو. وعندما ندم داود على خطيته مع بتشـــبع غفر له الله ولكنه لم يعفه من عقوبة حلّت على نســـله، بل أن تلك الخطية ونتائجها لم تفارق النبي البار طوال حياته. يقول ابن سيراخ: «القاضي الحكيم يؤدِّب شعبه، وتدبير العاقل يكون مرتبًا» (سيراخ١٠: ١).

ومن المواقف التي دافع فيها الله عن أولاده، موقفه حين احتج القديس بطرس على تبعية يوحنا الحبيب للمســـيح بعد أن قال له الرب اتبعني، حيث قال للقديس بطرس: «"إِنْ كُنْتُ أَشَـــاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ، فَمَاذَا لَكَ؟ اتْبَعْنِي أَنْتَ!" فَذَاعَ هذَا الْقَوْلُ بَيْنَ الإِخْوَةِ: إِنَّ ذلِكَ

التِّلْمِيذَ لاَ يَمُوتُ. وَلكِنْ لَمْ يَقُلْ لَهُ يَسُوعُ إِنَّهُ لاَ يَمُوتُ، بَلْ:"إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ، فَمَاذَا لَكَ؟".» (يوحنا ٢١: ٢٢،٢٣).

وعن واضع الامتحانات والمصححين:

هناك فروق بين شـخص وآخر في الترفق، هناك من يسـعى لأن يكون كريمًا مع التلاميذ سـخيًا في درجاته، يتعامل معهم وكأنهم أولاده الجسـديين، في حين يقسـو آخر على الطلبة، ويظهر ذلك أكثر في الشـفهي، حين يترفق الممتحن بالطلبة ويشـجعهم على التذكر والكلام، دون أن يربكهم كثيرًا.

أتذكر أيضًـا موقف التلاميذ من الجموع الجائعة والمُنهَكة، حيث طلبوا من الرب أن يصرفهم ليأكلوا ويبيتوا، ولما طلب منهم أن يطعموهم اعتذروا عن ذلك، ولكن الرب ترفق بهم واسـتضـافهم وأطعمهم فأكلوا جميعهم وشـبعوا (متى١٤: ٢٠). هكذا الرب يسـتقبل ويحتضـن ويشـفي ويطعم وكل من له إحتياج يجده فيه. بل يجده "بأقل تكلفة" (أسـعاره حنينة)، بل مجانًا يعطي «أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَـانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا» (رؤيا ٢١: ٦) «لأَنَّهُ لَيْسَ بِكَيْل يُعْطِي اللهُ الرُّوحَ» (يو ٣: ٣٤).

بل ويرثي الله لضعف البشر:

فيقول الرب عن الإنسـان «هُوَ بَشَـرٌ..» (تكوين٦)، بل أنه تألم مثلنا فيقول القديس بولس: «لأَنْ لَيْسَ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ غَيْرُ قَادِرٍ أَنْ يَرْثِيَ

لِضَعَفَاتِنَا، بَلْ مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ» (عب٤: ١٥)، ونصلي إلى الله في القداس الغريغوري: "لأنك أنت هو العارف جبلتنا أنه ليس مولود امرأة يتزكّى أمامك"، ولا يوجد في الحقيقة من يهمه أمرنا أكثر من الله، حتى أن سلمنا للعقاب فإن ذلك يكون بتدبير منه، غير أنه لا يتركنا للأعداء بل يتدخل في الوقت المناسب، فقد حدث ذلك مع أبوينا إبراهيم وإسحق حين حذّر الله فرعون من المساس بهما، مثلما حذر لابان من أن يمس يعقوب بخير أو بشر، وعندما دبر أن يعاقب الشعب لمدة، قال: «وَالأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا سَأَدِينُهَا أَنَا، يَقُولُ اللهُ» (أعمال٧: ٧).

ولكن ما معنى «مُخِيفٌ هُوَ الْوُقُوعُ فِي يَدَيِ اللهِ الْحَيِّ!» (عبرانيين ١٠: ٣١)؟

إن المقصود هنا هو وقوع الأشرار في يد الله يوم الدينونة، ويشرح القديس بولس ذلك قائلًا: «فَهُوَذَا لُطْفُ اللهِ وَصَرَامَتُهُ: أَمَّا الصَّرَامَةُ فَعَلَى الَّذِينَ سَقَطُوا، وَأَمَّا اللُّطْفُ فَلَكَ، إِنْ ثَبَتَّ فِي اللُّطْفِ، وَإِلاَّ فَأَنْتَ أَيْضًا سَتُقْطَعُ» (رو ١١: ٢٢) والصوت الصارخ الآن في الكنيسة ونحن على هذه الأرض هو: «تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ» (متى٣: ٢) ومعناه أن الوقت وإن اقترب ولكنه ما تزال هناك فرصة، ولكن تأتي ساعة حين يصرخ الصوت «هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ» (متى ٢٥: ٦) وذلك عند انقضاء العالم حيث تكون جميع الفرص قد راحت، وبعد موت

الإنســـان يقول داود النبي «لأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ. فِي الْهَاوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟» (مز ٦:٥). حينئذ ورغم أن الله ســـيكون أكثر من يدافع عنا ولكن يتبقى الذين رفضـــوه والذين اقترفوا شـــرورًا كثيرة وأذلّوا كثيرين، أولئك سيكون الوقوع في يد الله مخيفًا لهم جدًا.

إن رحمة الله رحمة غير محدودة، في حين أن الناس مهما بلغت رحمتهم وحنوهم فلن يصـــلوا إلى مســـتوى رحمة الله، فقد يكون لأناتهم طول ما وقد يتضـــايقون من الجحود وقد يقتصّـــون لأنفســـهم، أو قد يســـرفون في الرحمة دون عدل، أو يســـرفون في العدل دون رحمة، وقد يفشـــلون في أحكامهم، ولكن الله عادل ورحوم لا يشـــاء أن يموت الخاطيء بل أن يرجع ويحيا. قال القديس بطرس: «لاَ يَتَبَاطَأُ الرَّبُّ عَنْ وَعْدِهِ كَمَا يَحْسِبُ قَوْمٌ التَّبَاطُؤَ، لكِنَّهُ يَتَأَنَّى عَلَيْنَا، وَهُوَ لاَ يَشَاءُ أَنْ يَهْلِكَ أُنَاسٌ، بَلْ أَنْ يُقْبِلَ الْجَمِيعُ إِلَى التَّوْبَةِ» (٢بطرس٣:٩).

يا رب لا تبكتني بغضبك

المزمور السادس

«يَا رَبُّ، لاَ تُوَبِّخْنِي بِغَضَــبِكَ، وَلاَ تُؤَدِّبْنِي بِغَيْظِكَ. ارْحَمْنِي يَا رَبُّ لأَنِّي ضَعِيفٌ. اشْفِنِي يَا رَبُّ لأَنَّ عِظَامِي قَدْ رَجَفَتْ وَنَفْسِــي قَدِ ارْتَاعَتْ جِدًّا. وَأَنْتَ يَا رَبُّ، فَحَتَّى مَتَى؟

عُدْ يَا رَبُّ. نَجِّ نَفْسِي. خَلِّصْنِي مِنْ أَجْلِ رَحْمَتِكَ. لأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ. فِي الْهَاوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟ تَعِبْتُ فِي تَنَهُّدِي. أُعَوِّمُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ سَــرِيرِي بِدُمُوعِي. أُذَوِّبُ فِرَاشِــي. سَــاخَتْ مِنَ الْغَمِّ عَيْنِي. شَاخَتْ مِنْ كُلِّ مُضَايِقِيَّ.

أُبْعُدُوا عَنِّي يَا جَمِيعَ فَاعِلِي الإِثْمِ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَــمِعَ صَــوْتَ بُكَائِي. سَــمِعَ الرَّبُّ تَضَــرُّعِي. الرَّبُّ يَقْبَلُ صَــلاَتِي، جَمِيعُ أَعْدَائِي يُخْزَوْنَ وَيَرْتَاعُونَ جِدًّا. يَعُودُونَ وَيُخْزَوْنَ بَغْتَةً. هلليلويا.»

هو واحد من مزامير التوبة (٦،٣٢،٣٨،٥١،١٠٢،١٣٠،١٤٣). وفيه يعلّق داود النبي على خطيته التي اقترفها (الزنى والقتل)، وهي الخطية التي ألقت نتائجها بظلالها على حياته حتى نياحته، بل ولاحقت نسله لسنين طويلة، وهو هنا لا يرفض التأديب وإنما يطلب معاملة الله له كأب وليس كديان.

يا رب لا تبكتني بغضبك ولا تؤدبني بسخطك:

التبكيت مقبول وضـــروري، كذلك الرجز أو الانتهار والعتاب واللوم، ولكن ليكن ذلك بلا غضــب، إن عقاب الطفل لا يؤلمه قدر الغضب الذي يُقدَّم به التأديب من ملامح قاسية ونبرات مزعجة. أحيانًا يطلب الأب من ابنه أن يعاقب نفسه أو يختار عقوبة له بنفسه، مثلما فعل الله مع داود حين خيّره بين ثلاث عقوبات، وعندها قال: «فلنَسقُطْ في يَدِ الرَّبِّ، لأنَّ مَراحِمَهُ كثيرَةٌ ولا أسقُطْ في يَدِ إنسان»(٢صم٢٤: ١٤). أيّ شـــخص يحب أن يكون العقاب أتيًا من قلب محب، وأن يكون الغرض منه هو خيره وليس الانتقام، أو الثأر للنفس. يجب أن تكون اليدان. واحدة للضرب، والأخرى للاحتواء والملاطفة.

ارحمني يا رب فإني ضعيف:

حيث يكون الضعف تظهر قوة الله وتعمل، وحيث تكثر الخطية تزداد النعمة، داود النبي هنا يســتدرَ شـفقة الله، والرحمة تنحدر من أعلى على المنســحقين، وكأنه يقول له: "أنا أحقّ بالرحمة لأني ضــعيف"، مثل الأب الذي قال: "إن كنت ترحم البار فليس هذا بعجيب، ولكن أن تظهر فيّ قوتك أنا الضــعيف فهذا هو العجب!". ومرة أخرى يقول داود للرب: «احْفَظْ نَفْسِي لأَنّي تَقِيٌّ» (مز ٨٦: ٢ – قبطي)، بمعنى مسكين. هكذا الذي يطلب معونة أو صدقة أو رحمة يطلبها باتضاع كمن هو غير مستحق، فإن الدالة لا تمنع الاتضاع.

اشفني يا رب فإن عظامي قد اضطربت، ونفسي قد انزعجت جدًا.

داود يعاني من التعب الجسدي (عظام مضطربة)، وتعب نفسي (نفسي قد انزعجت)، ونحن ندعو المسيح طبيب النفوس والأجساد، يستخدم الكتاب تعبير "عظام" كثيرًا ليشير إلى أعماق الإنسان وقوته، فيقول إن «الخَبَرُ الطَّيِّبُ يُسَمِّنُ العِظامَ» (أمثال١٥ :٣٠)، كما يشير إلى أعظم ما في الإنسان أو ما يتبقى من الإنسان، فيتحدث الكتاب عن دفن العظام، وعن إحراق العظام الخ.. وعدم كسر العظام «عَظمٌ لا يُكسَرُ مِنهُ» (يوحنا١٩ :٣٦)، «لَيسَتْ في جَسَدي صِحَّةٌ مِنْ جِهَةِ غَضَبِكَ. لَيسَتْ في عِظامي سلامَةٌ مِنْ جِهَةِ خَطيَّتي» (مز٣٨ :٣)، «لَمّا سكَتُّ بَليَتْ عِظامي مِنْ زَفيري اليومَ كُلَّهُ» (مز٣٢ :٣).مثلما يتحدث عن الكُلى باعتبارها أعماق الإنسان وأحشاء الإنسان. وهكذا تسبّب الخطية أمراضًا نفسية وجسدية للخاطئ.

وأنت يا رب فإلي متى؟ عُد ونجِّ نفسي، وأحيني من أجل رحمتك:

هنا مشكلة الزمان التي يعاني منها الإنسان، فالله يأتي في وقت مناسب حدّده لصالح الإنسان، ولكن الإنسان كثيرًا ما يكون متعجلًا، فيرى أن الله قد تأخر عليه، يقول الرب في مثل قاضي الظلم «أفَلا يُنصِفُ اللهُ مُختاريهِ، الصّارِخينَ إليهِ نهارًا وليلًا، وهو مُتَمَهِّلٌ عليهِمْ؟

٨أقولُ لكُمْ: إنَّهُ يُنصِفُهُمْ سريعًا!» (لوقا١٨:٧). أحيانًا يتشكّك الإنسان بسبب غياب الله «يا رَبُّ، لماذا تقِفُ بَعيدًا؟ لماذا تختَفي في أزمِنَةِ الضّيقِ؟» (مزمور ١٠:١)، ويتساءل الناس عن امتداد الأشرار ونجاحهم «على ظهري جلدني الخطاة وأطالوا إثمهم» (مز ١٢٨:٣ – قبطي)، ويبدو الأمر وكان الأشرار يتمِّمون كل مشورتهم بلا رقيب ولا رادع، ويتمادون في غيّهم. ولكنه يقول في مواضع اخرى «إنتِظارًا انتَظَرتُ الرَّبَّ» (مزمور ٤٠:١) «انتَظِرِ الرَّبَّ. ليَتَشَدَّدْ وليَتَشَجَّعْ قَلبُكَ، وانتَظِرِ الرَّبَّ» (مزكور ٢٧:١٤).

هنا أيضًا يقول إنه كاد أن يموت بسبب ما يعانيه «عُد ونجِّ نفسي وأحيني..» أي أنقذني قبل أن ينضب الزيت الذي معي، قبل أن يفنى رجائي، وقبل أن يصطادني العدو بمصيدة اليأس، انفخ في الفتيلة المُدخِّنة وشدِّد الركب المرتعشة.. لقد مرّ القديس بولس بمثل هذا الشعور حين قال «فإنَّنا لا نُريدُ أنْ تجهَلوا أيُّها الإخوَةُ مِنْ جِهَةِ ضيقَتِنا الّتي أصابَتنا في أسيّا، أنَّنا تثَقَّلنا جِدًّا فوقَ الطّاقَةِ، حتَّى أيِسنا مِنَ الحياةِ أيضًا» (٢كورنثوس١:٨)، وهي مشاعر تنتاب الكثيرين، ولكن الله يسمح بها لكي يبدأ مع الإنسان من الصفر، يتركه حتى يفقد كل ما لديه ليبدأ معه من جديد مثل أيوب الصديق وغيره..

ثم يقول: «أحيني من أجـل رحمتـك»، أي "وليس من أجـل خطاياي"، وهكذا نردّد في القداس وفي ختام صـــلاة الأجبية: "يارب اغفر لنا من أجل اسمك القدوس... كرحمتك وليس كخطايانا".

لأنه ليس في الموت من يذكرك، ولا في الجحيم من يعترف لك:

والسبب واضح وهو أنه ليست هناك فرصة بعد الموت، ويقول البعض إن توبة المريض مريضة وتوبة الميت ميتة! ولعله يقصد أن توبة المريض ليست مضمونة، مثل الراهب الذي توسل إلى الله أن يمدّ في عمره قليلًا حتى ولو لمدة يوم واحد، وإن لم يعمل شـــيئًا فسيبكي فيه. والفكرة أنه بعد الوفاة لا توجد فرصة للتوبة ولا الصلاة ولا الاعتراف «لأنـه ليس في الموت من يذكرك، ولا في الجحيم من يعترف لـك» (مزمور ٦:٥ – قبطي)، أي لا أريـد أن أموت في خطيتي، أو لا تتسبّب أحزاني في موتي كمدًا وهمًّا. كثير من سكان الجحيم يتمنّون يومًا من الأيام التي نصرفها هنا في اللهو، ويتعجبون كيف لا نقدّر قيمة الوقت.

تعبت في تنهدي. أعوِّم كل ليلة سريري، وبدموعي أبلّ فراشي:

الفرق بين الحزن والكآبة والتنهد، هو أن الحزن قد يكون موقفيًا، وأمّا الكآبة فهي شدة الحزن، بينما التنهُّد هو اجترار الحزن. إن أغلى وأثمن الدموع هي التي يسكبها الإنسان في صمت ولا يراها سوى

الله، إنها أغلى شـــيء، وهو يحفظها في زقٍّ عنده «تيَهاني راقَبتَ. اجعَلْ أنتَ دُموعي في زِقّكَ. أما هي في سِـفرِكَ؟» (مزمور ٥٦ :٨). هكذا لا يحتمل الأب أو الأم دموع الطفل، فتنهدم حصون الرفض أو البخل، وقال الرب لعروسه (النفس البشـرية) «حَوِّلي عَنّي عَينَيكِ فإنَّهُما قد غَلَبَتاني» (نشـيد٦ :٥). وفي الدموع يجد الإنسان متنفَّسًا للضـيق وصـغر النفس والشـعور بالظلم «صـارَتْ لي دُموعي خُبزًا نهارًا وليلًا إذ قيلَ لي كُلَّ يومٍ: أين إلهُكَ؟» (مزمور ٤٢ :٣). والعجيب أن الإنسـان يجد راحة في أن يبكي، ويشـعر بالهدوء بعد البكاء. وعلينا الوقوف أمام الدموع بوقار شديد وعدم السخرية ممن يبكون.

حقًا وكما قال الآباء: "التوبة معمودية ثانية"، بجرن المعمودية نولد من جديد وتُغفر الخطية الأصـلية والخطايا الشـخصـية، وفي التوبة والتي بها نندم على خطايانا نبكي أيضًا، حيث تحسب الدموع معمودية ثانية.

تعكّرت من الغضب عيناي. شاخت من سائر أعدائي:

وفي البيروتية «ساخت من الغم عيني»، ومنها التعبير الشـائع سـخسـخ أو سـاخ. والمعنى أنها كّلت أو أعيت من كثرة البكاء، إنها إشـارة إلى التوبة الصـادقة بحرقة قلب وصـدق وشـعور قوي بالندم. وعلى قدر انسـحاق الإنسـان وشـعوره بالندم، على قدر ما يغمره الله

بالرحمة، حتى مع الاشـرار : «هل رأيتَ كيفَ اتَّضَـعَ أخآبُ أمامـي؟ فمِنْ أجلِ أنَّهُ قد اتَّضَـعَ أمامي لا أجلِبُ الشَّـرَّ في أيّامِهِ، بل في أيّامِ ابنِهِ أجلِبُ الشَّرَّ علَى بَيتِهِ» (١ملوك٢١:٢٩).

ابعدوا عنى يا جميع فاعلي الإثم، لأن الرب قد سـمع صـوت بكائي، الرب سمع تضرعي، الرب لصلاتي قبل.

التعبير يعني ببساطة: "ابعدوا عني... وسّع الطريق"، الله قادم، أفسـحوا الطريق فإنه زمن الافتقاد، المخلص قادم فلتسـقط حصـون العدو ... إنه مثل الطفل الذي حالما يظهر والده يتشـجع بأن ينتهر أعداءه، ويسـتعيد قوته، ويلملم شـتاته. مثلما يحدث مع الكثيرين إذ أنهم بعد أن يذرفون الدمع الكثير فيسـتريحون وتتجدد قوتهم وينتعش رجاؤهم وتنفتح شـهيتهم للعمل من جديد، من هنا يسـتعذب الكثيرين الدموع ، تلك الدموع الممتزجة بالرجاء والاتضـاع معًا. هكذا في المساء يحل البكاء، وفي الصباح السرور «لأنَّ للَحظَةٍ غَضَبَهُ. حياةٌ في رِضاهُ.عِندَ المساءِ يَبيتُ البُكاءُ، وفي الصّباحِ ترَنُّمٌ» (مز ٣٠:٥)، لقد بات الليل كله يصلي، وها قد ذهب الليل وطلع الفجر..

فليَخزَ وليضطرب جدًا جميع أعدائي،

وليرتدوا إلى ورائهم بالخزي سريعًا جدًا. هلليلويا.

إن الشيطان الذي يكرز بالرجاء والضعف البشري ويورد على أذهاننا العديد من صور السقوط للآباء مثل لوط وداود وسليمان، ونحن أمام الإغراء، هو هو الذي يكرز بالهلاك الأبدي للخطاة عقب السقوط، ويشيع روح اليأس، ويورد صورا من الذين هلكوا بخطاياهم أمثال غخان وقورح ويهوذا وحنانيا؛ لذلك يزجر داود أعداءه وينتهرهم ويطردهم من قدامه. ولا شك أن الإنسان متى تخلص من خطيته يستعيد قوته من جديد، في حين تُفقِد الخطية الإنسان الشهية والثقة والمقاومة.